عبوديّة وعبادة

"يا أخوة بعد أن أعتقتم من الخطيئة أصبحتم عبيداً للبرّ"

الإنسان هو "رجلُ الرغبات". لا يوجد إنسان دون قلب وعواطف، وفي هذا الجميعُ يشتركون معاً، الأبرار والأشرار! لكن ما يختلف فيه إنسانٌ عن آخر هو خياره في تحديد ما يحبّ ويعشق. لهذا يقول الأدب الرهبانيّ المسيحيّ: الراهب يستبدل عشقاً بعشقٍ، يستبدل عشق الماديّات بعشق السماويّات. لهذا وإن كان بولس الرسول يستخدم هنا كلمتَي عبد وعبوديّة نحو الخطيئة كما نحو البّر، إلاّ أنّه يعنيهما بشكل مختلف.

ما يقصده بولس هو ما تعنيه كلمة عبد، إنّه الإنسان الذي يسير وفق وصايا سيّده وليس هو عبد لذاته. وفي هذا المجال هناك مَن يسير وفق أوامر غريزيّة وهناك آخرون اختاروا أن يصلبوا الجسد مع شهوته وغريزته ليعيشوا بحسب وصايا السيّد. الأوّل تستعبده وتقوده وتسيّره رغباته وغرائزه الفطريّة. أمّا الآخرون فقد اختاروا أن يتحرّروا من أسر الغريزة لكي يحبّوا ويعبدوا عالم الروح والسماء. نعم يزداد حبُّ هؤلاء للكلمة وللسيّد، لقد جذبهم بصلبه وتضحيته وحبّه الذي ليس هناك أعظم منه: أن يبذل المرء نفسه عن أحبّائه، فاختاروا أحرار أن "ينعتقوا" من الخطيئة والغريزة والرغبات الماديّة، ليعبدوا الله حبّاً وشوقاً ويسمّوا أنفسهم "عبيد البرّ". هذا الفرق يمكننا لفظيّاً أن نميّزه في استخدامَين منفصلَين لكلمة عبوديّة أي: عبد وعابد، عبوديّة وعبادة. حيث في الاستخدام الأوّل تقهر الغريزةُ والرغباتُ عشقَ الإنسان للسماويّات، وفي الاستخدام الثاني تحرّر فيه قوّة الكلمةِ ونعمةُ الروح الإنسانَ من عبوديّة الخطيئة، فيعشق ما تميل إليه النفس البشريّة من سموّ ورفعة.

تتردّد كثيراً في صلواتنا الصور والتسابيح التي ترفع من "المجد الإلهيّ". ونؤمن ونقول إنّ الله خلقنا لنشاركه مجده. ولكن كلمة "مجد" هذه لطّختها الأيّام والممارسات الدنيويّة، وصرنا نقرؤها مشوَّشة في إطارها الأصليّ الإلهيّ. المجد الإلهيّ ليس العظمة. وساعة مجد يسوع، "ساعتي" كما كان يكرّرها في الإنجيل، هي ساعة سكب محبّته للحدّ الأقصى. المجد الإلهيّ هو العشق البشريّ العميق والأصيل.

المجد الإلهيّ هو الشهوة البشريّة الدفينة، والضائعة أحياناً! المجد الإلهيّ هو المحبّة والسموّ والأناة والرفقة والحنان والبذل والفداء وكلّ برّ، وهذه أجمل شهوة!

لذلك تكثر في صلواتنا السجدات لمجد الله، "بيتُك ملآنُ مجداً". وتسيطر على الجوّ مشاعر الانكسار والخشوع والرهبة، وفي لهجة الرهبان هذه الرهبة هي "الدهشة" من الجمال الإلهيّ.

وتتفنّن الكنيسة بوصف السيّد بملك وربّ وسيّد... وتردي عليه (يسوع) أجمل ألبسة الملوك والتيجان والذهب في أيقوناته. ولكن حاشى لنا أن نخلط بتأثير عالميّ دنيويّ معنى ملوكيّة السيّد مع أشكالها الفاسدة والمزيّفة غالباً في دنيانا، لا بل ليصير هذا المجدُ- الخدمة والفداء- وهذا السموّ- البرّ- مثالاً أمام كلّ ملكٍ أرضيّ أو سيادة.

الانعتاق من العبوديّة والدخول في حريّة ولهفة العبادة يتمّ يوم المعموديّة. وهذه هي اللحظة التي يشير إليها بولس: "يا إخوة إذ أُعتقتم من الخطيئة". لكن نحن "عابدي" الله والمتحرّرين من الخطيئة، وللأسف، لا نثبت في العبادة ونعود مرّات عديدة إلى الزنى مع العبوديّة لإنساننا القديم، ولا نحفظ العهد بالتحرّر لننال فيض النعمة.

قال راهب لأبيه في الدير، يا أبتِ سقطتُ أجابه: انهضْ. قال نهضتُ ثم عدتُ وسقطتُ. أجاب الأب عدْ وانهضْ... قال وحتّى متى يا أبتِ، أجاب حتّى يداهمك الموت فيجدك إمّا ساقطاً أو ناهضاً! "البارّ وإن سقط سبع مرّات في اليوم ينهض سبع مرّات"! حريّة أبناء الله ليست تحصيل حاصل فور يوم المعموديّة، يوم المعموديّة هو مفترق في الحياة لكنّه ليس نهايتها بل البداية. على الطريق الجديدة سنتعثّر ونسقط، ولكن حاشى لنا أنْ نيأس! سننهض.

يوم المعموديّة هو اليوم الذي "نرفض فيه الشيطان" ونلازم المسيح، أي نلتزم به. إنّها اللحظة القرار أنّنا سنتشبّه بصورتنا الأصليّة- الله- ونرفض أن نتصوّر على الخدعة المعروضة وغواياتها في العالم- الشيطان. وهذا الأمر يتحقّق بمسيرة نسمّيها "تنشئة مسيحيّة". و يكلّمنا بولس عن أطفال بالروح (كانوا رجالاً معتمدين حديثاً) وعن طعام اللبن لهم، الذين لن يعطى لهم اللحم ليمضغوه حتّى يصيروا رجالاً بالروح أي كاملين بممارسة الفضائل. نحن إذن ننمو "إلى ملء قامة المسيح" من أطفال. لهذا من الطبيعيّ أن نتعثّر وننهض. الخطيئة ليس الحدث الخطأ فالطفل يخطئ، لكن الخطيئة هي أن نبقى في الخطأ عندما نكتشفه ونعرف الحق. "الخطيئة هي عدم التوبة". الذي يخطئ ويتوب أفضل ممّن يعمل الصلاح ويتبجّح! لقد أحبّ الربّ يسوع الخطأة الذين تابوا أكثر من الفريسيّين الذين برّروا ذاتهم بحفظ الوصايا.

مَن يتُبْ يعرف "التشبّه بالله" أي التقدّم الروحيّ. لكن الوقوف عند حدٍّ مهما كان هذا الحدُّ "باراً" هو خطيئة. فالنعمة غنيّة والوقوف يعني رفضها، الله قوّة ويريد الإنسان في حركة تقدّم وتشبّه به من حيث هو، على ألاّ يقف! النعمة تشفي الإنسان من ضعفاته والروح ينشئ النفس على صورة ربّها. "جيّد ألاّ تخطئ لكن إذا أخطأتَ فجيّد ألاّ تؤخّر التوبة. وإنْ تبتَ فجيّد ألاّ تعود إلى الخطيئة. وإذا لم تعدْ إليها فجيّد أن تعرف أنّ ذلك تمّ بمعونة الله. وإذا عرفتَ ذلك فجيّد أنْ تشكره على نعمته وتصرّ في طلب نعمته ومعاضدته! (القدّيس باسيليوس الكبير). كلّ يوم لا تتوب فيه (تتحسّن وتتقدّم) لا تحسبه من أيّام حياتك، يقول القدّيس اسحق السريانيّ.

نعم التوبة هي "معموديّة ثانية" إنّها "معموديّة الدموع"، هذه الدموع التي تسقي نفسنا لتنمو إلى ملء قامة المسيح. "التوبة هي انعتاق من الخطيئة" كما يقول بولس الرسول، بمعنى أنّها كره الخطيئة والإقلاع عنها. إنّ السقوط في الخطيئة بعد المعموديّة أمرٌ منتظَر في عالم التنشئة والتربية، لكن مَن ينشأ فعلاً مسيحيّاً يقلّ في حياته السقوط فيسلك في النور ولا يتعثّر كثيراً. "حفظتُ وصاياك فما زللتُ". لهذا عندما سأل أحدهم يسوع قائلاً: "إن أخطأ أخي هل أسامحه سبع مرّات! أجابه يسوع: "سبعين مرّة سبع مرّات" لأنّ الغاية ليس الحكم على الخاطئ ولكن تنشئته أي أن يعود ويحيا.

هناك نوعان من الضعفات البشريّة نتوب عنها بطريقتَين مختلفتَين فهناك ما نسمّيه بالخطايا والضعفات النفسيّة، ومثالها الحقد والنميمة على الناس... الخ وهذه تُصلَح فوراً بمجرّد معرفتها والانتباه إليها وكرهها. فإذا ما اكتشفتَ مثلاً أن فلاناً، الذي أحقد عليه، كان صديقاً ويستحقّ المحبّة وقد أخطأتُ في حقه، على الفور تتحوّل كلّ مشاعر الاحتقار والحقد إلى مواقف اعتبار ومحبّة.

لكن هناك ضعفات نتوب عنها ونتخلّص منها بالتدرّج، وهي تلك المرتبطة بالطبيعة الجسديّة أكثر مما هي نفسيّة. ومنها مثلاً شهوة الطعام وشهوة الجسد والغضب ...الخ. نكرهُ الغضبَ لكنّنا نغضب على غضبنا ذاته. نقرّر الصوم لكنّنا سريعاً ما نكسره ونعود للطعام، نكره أفكار الزنى لكنّها تعود وتراودنا، طالما نحن مبتدئون في الحياة الروحية "أطفالٌ نتدرّب". لذلك يقول السلميّ إنّ الاعتراف بهذه الخطايا لا يعني التخلّص الكليّ منها مرّة واحدة، وإنّما التخلّص المبدئيّ منها. ويشبه الاعتراف بهذه الخطايا بمن يقطع رأس الأفعى؛ نقول إنّها ماتت، لكن يبقى ذيلها يتحرّك لساعات.

هذا هو واقعنا البشريّ المشدود من جهتَين، الأرض والسماء. ومَن قرّر بحريّته وخياره وإعجابه وثقته أن يتدرّج على السلّم الروحيّة وأن ينمو إلى ملء قامة المسيح "يجعل أعضاءه عبيداً للبرّ"، أي يوجّه كلّ قواه الروحيّة وحواسّه والجسديّة في طريق العبادة الإلهيّة.

باطل هو السعي صعوداً عندما نسبي حواسّنا وقوانا إلى عبوديّات من أطر الخطيئة. نحن أحرار في اختيار الطريق، بين الصاعدة أو الهابطة. لكن علينا حين نختار بحريّتنا التدرّج إلى فوق أن نخلص السعي. "مَن يضعْ يده على المحراث لا ينظر إلى الخلف" كامرأة لوط!

عبوديّة البرّ هذه، التي نختارها أحراراً بفرح، هي التخصّص في خدمة ملك السماء عوض "سيّد هذا العالم" إبليس. لا يفيد أن يسير الإنسان للأمام وعيناه تنظران إلى الخلف، سوف يتعثّر. لا يخدم الإنسانُ سيّدَه حين يدخل في صفوف أعدائه. الضفدعة التي تقفز في كلّ الاتجاهات، أمام وراء، لا تتقدّم، يقول الأدب الرهبانيّ.

إذا كانت كلمة "عبد البرّ" هنا تعني العبادة الحرّة فهي تعني أيضاً ألاّ نظلم ونستغلّ حريّتنا بالمسيح، أي أنّها تعني "التخصّص" والفرز: "اخرجوا وتطهّروا". فلنكنْ صادقين وثابتين في العشق الذي اخترناه، لأنّه لا يمكننا أن نعبد ونحبّ الله والوثن معاً.

إذا أردنا حقّاً أن نعبد الله بالبرّ ونتخصّص له، هذا يعني على الفور أن نكون ساهرين على اختيار عالمنا في ملكوته لا بل أن نجعل نحن ببرّنا العالَم ملكوتَه. أبناءُ النور لا يختارون الحارات المظلمة والابن لا يسافر إلى "كورة بعيدة".

أعضاؤنا (قوانا ورغباتنا) لن تكون عبيداً للبرّ في الأطر والعلاقات الدنيويّة الفاقدة الروح. إنّ الأطر الكنسيّة والإنسانيّة السامية والثقافيّة والخدميّة والأعمال الشريفة وكلّ ما هو "برٌّ" وجميل هم الهيكل الكونيّ الواسع الذي تتمّ فيه عبادة الله. ونحن الذين أُعتقنا من الخطيئة – بالمعموديّة- نجعل أعضاءنا وحركاتنا تعبد الله بالبرّ عندما نختار أن نحيا في هذا الإطار الكنسيّ، والأحرى القول بهذا الأسلوب الكنسيّ، حيث المسألة هي طريقة مسلكيّة وليست أطراً مكانيّة. لنرسل أبناءنا إلى مدارس الأحد والكشاف والأخويّات والتعليم الدينيّ، ولننخرط نحن عائلات كباراً وصغاراً في حياة الكنيسة وأسرارها ونشاطاتها وخدماتها في خدمتها. بهكذا حياة نتابع عبادتنا التي قرّرناها يوم أُعتقنا من الخطيئة (كرهناها) ونصير عبيداً للبرّ أبناءً للنور نعرف الحقّ والحقّ يحرِّرنا، آمين.